231

الأبحاث والدراسات

المؤرخ غيثان بن جريس والإعلام : سيرة تاريخية (*)

د. عوض بن عبد الله بن ناحي

(*) دراسة منشورة في كتاب: المؤرخ غيثان بن جريس في الصحف والمجلات والندوات (١٤٠٧ – ١٤٤٠ هـ / ١٩٨٧ – ٢٠١٨ م) ، لعوض بن ناجي، (الطبعة الأولى)(الرياض: مطابع الحميضي، ١٤٤٠ هـ / ٢٠١٩ م). ص ص ١٥ – ٢٧ .

ثانياً :

المؤرخ غيثان بن جريس والإعلام: سيرة تأريخية

(Histiographical Biography)

المؤرخ غيثان بن جريس والإعلام: سيرة تأريخية

بقدر ما تقدم المادة الإعلامية تفاصيل مثيرة لمسيرة ابن جريس في العمل الأكاديمي وغير الأكاديمي، فإنها تقدم رصداً مميزاً لمسيرة مؤرخنا القدير في ميدان "التأليف التاريخي" وتميط اللثام عن مؤلفات لم ترى النور و أخرى طال انتظارها. وفي الميدان الفكري مثلت "الحوارات الإعلامية" مادة دسمة لاستنطاق وجهة نظر غيثان بن جريس حيال عدد من القضايا الفكرية، والثقافية والتربوية والاجتماعية في المجتمع السعودي. والتزاماً بما صرّح به كاتب هذه السطور في مقدمة هذا الكتاب، فسيقتصر هذا الفصل على تقديم عرض تحليلي موجز لأهم ما تحدث به غيثان بن جريس في حواراته الإعلامية، و آخر عما كتبه الأديب الكبير محمد بن عبدالله بن حميِّد عن ابن جريس في زاويته الصحفية (من وحي الوطن).

أولاً: المؤرخ ابن جريس في حوارات الإعلام المكتوب

يُعد حوار الأستاذ الدكتور غيثان بن جريس الذي أجرته معه جريدة الجزيرة في (١٨/ ١١/ ١٤١٤هـ) على ثلاثة أجزاء من أوائل حوارات المؤرخ الكبير، حيث تحدث فيه عن مواضيع شتى أبرزها تاريخ مكتبته، و نشأتها، ومراحل تطورها، و أبرز محتوياتها. وقد تضمن الحوار عدة أراء جريئة لمؤرخنا حول أوضاع الساحة الأدبية في حقبة التسعينيات الميلادية. كما تحدث عن أهم أبحاثه و مقالاته و مؤلفاته المنشورة في ذلك الوقت فضلاً عن مشاريعه البحثية حينذاك. وقد كشف الأستاذ ابن جريس عن قرابة الخمسين بحثاً وخمسة كتب كانت حصيلة إنتاجه العلمي حتى ذلك الوقت. تركز معظمها في التاريخ المحلي لجنوبي البلاد السعودية، والتاريخ والحضارة الإسلامية، إضافة إلى الكتابة في قضايا فكرية مهمة كالإستشراق والعلاقة بين الإسلام ويهود الدونمة.

وفي الجزء الثاني من الحوار تحدث الأستاذ غيثان بإسهاب عن أثر الحضارة الإسلامية على مثيلتها الغربية. ورغم أن مؤرخنا لم ينكر دور الحروب الصليبية في هذا التأثير فقد عزا هذا التأثر إلى أربعة عوامل رئيسية تمثلت في قوة حضارة الإسلام، وتسامح المسلمين مع أهل البلاد المفتوحة، و سياسة الفاتحين العرب في الاندماج مع السكان الأصليين، إضافة إلى حالة التخلف التي عاشتها أوروبا في العصور الوسطى. والحقيقة أن هذه العوامل الأربعة ليست بالجديدة في نقاش العلاقة بين حضارتي الإسلام و أوروبا النصرانية ، غير أنها بقيت عوامل ثانوية أمام أهم ثلاثة عوامل قادت أوروبا للتواصل مع الحضارة الإسلامية والإفادة منها ونعني هنا: الحروب الصليبية، ودور الأندلس، إضافة إلى حركة الترجمة التي كانت نتاجاً غير مباشر لأول عاملين.

وفي الجـزء الثالث من الحـوار كان للأستاذ الدكتور ابن جريـس وقفة مع نادي أبها الأدبـي الـذي كان أحد أعضاءه البارزين وقتها. فقد تحـدث عن نادي أبها الأدبي مشيدا بدعـم أمير المنطقة حينها الأمير خالد الفيصل و أمير الشباب الراحل فيصل بن فهد – رحمه الله– مثمناً ذلك العمل الكبير الذي بذله رئيس نادي أبها الأدبي خلال تلك الحقبة الذهبيـة الأستـاذ محمد بن عبـدالله بن حميِّد والعاملـون معه في الوصـول بالنادي إلى مستـوى مرموق في الفعاليـات الثقافية بالمنطقة. ورغم ذلك النقد اللطيف الذي طالب به الدكتـور ابن جريـس النادي بالانخراط في "جميع النشاطات العلمية و الفكرية"، لكنه لم يقـدم تفاصيـل كافية عن ماهية تلك "النشاطات"، فقد بقي نقده يتناول عناوين عريضة دون الخوض في التفاصيـل. غير أن الأهم من ذلك مطالبـات الأستاذ ابن جريس لنادي أبهـا الأدبي مد جسـور التعاون والعمل مع أساتذة الجامعات وهـي إشكالية لا تزال قائمة إلى يومنا هذا، وفي كثير من أنديتنا الأدبية التي تعاني ضعفاً في التواصل مع جامعاتنا على امتداد خارطة الوطن.

وفي ثنايا هذا الحوار ألقى مؤرخنا الدكتور غيثان بعض الضوء على أطروحة الدكتوراه التي قدمها في جامعة مانشستر البريطانية وتتمحور حول "الأوضاع الاجتماعية والنشاط الحرفي والتجاري في الحجاز خلال العصر العباسي الأول، (١٣٢-٢٣٢هـ/٧٤٩-٨٤٧م). فتحـدث فيها عن أسباب اختياره للموضوع وأهم محـاوره، ومراحل جمع المادة العلمية، و أهم ما خرج به من نتائج في هذه الأطروحة العملية.

ولابـن جريـس آراءه في مجـالات ثقافية تهم الأسـرة والطفل كدور المكتبـات العامة والإعـلام ونحوها. فقد انتقد تراجع معدلات القراءة بـين أوساط المجتمع العربي مقارنة بالعـالم الغربي، كما انتقـد المحتوى السلبي الذي تقدمه بعض وسائل الإعلام العربي في تلـك الحقبة. وقد لا يكون جديداً على القـارئ الكريم إذا قلنا أن مثل هذه لا تزال ظواهر سلبية يعاني منها المجتمع العربي حتى يومنا هذا.

وفي حـوار لابن جريس مع مجلة آفاق الجامعة ، العـدد (١٩)، في شعبان (١٤٢٤هـ) كانت كثير من قضايا الحوار السابق تبرز نفسها بشيء من التكرار. فقد تحدث عن مسيرة مكتبتـه الشخصيـة منذ أن أنشأهـا في منزله العائلي بمدينة النماص مطلع التسعينيات الهجرية، مستعرضاً بعض محتوياتها وعناوينها وسبل تطويرها. غير أن المختلف هنا تلك الإشـارة العابرة والغامضـة في ذات الوقت إلى مقتنياته من المخطوطات والكتب النادرة و التي خلت من أي إشارة مباشرة لأهم عناوين تلك المقتنيات.

وفي ذات الصحيفـة الجامعيـة "آفـاق" العـدد (٤٣)، شـوال (١٤٢٧هـ) كان لابن جريـس حوار آخر لكنه كان مختلفاً هذه المرة مضموناً وعناوين. إذا تحدث بتفصيل كبير عـن كرسي الملك خالد الذي تأسس للتو حينها وتولى ابن جريس رئاسته والإشراف عليه. فقـد استعرض بإسهاب فكرة و مسوغـات تأسيس هذا الكرسـي العلمي الذي يهدف الى

التركيـز علـى دراسة عهد حكم الملـك خالد – رحمه الله-. كما تطـرق لأهداف الكرسي التـي يبـدو من حديث مؤرخنـا أنها كانت لا تـزال في طور الصياغة والإعـداد مع الفريق المشـرف على تأسيس الكرسي. ويبدو أن فـترة التأسيس حينها انعكست على إجابات ابن جريـس على أسئلة أخرى في ذات موضوع الكرسي، كتفاعل الباحثين مع تأسيس الكرسي، والخدمـات التي سيقدمها الكرسي مستقبلا، ونوعيـة البحوث والدراسات المقترحة تحت مظلـة الكرسي ونحوها. وفي مجمل الحوار كان الدكتور ابن جريس واضحا وهو يقول بلغة متفائلـة: "نسعـى من خلال هذه الكرسـي إلى إخراج دراسـات ذات طابع أكاديمي علمي رصـين"، وهـو ما انعكس واقعا فيمـا بعد من خلال خروج العديد مـن الرسائل الجامعية المحكمة بدعم كرسي الملك خالد للدراسات الاجتماعية.

وفي ذي القعـدة (١٤٢٧هـ) كان لغيثان بـن جريس حوار موسع مـع "ملحق الأربعاء الثقـافي بجريدة المدينة" حول الأندية الأدبية، و الهمـوم الثقافية والعلمية لمثقفي الوطن. فقـد طالب مؤرخنا بتوسيع اهتمامات الأندية الأدبيـة إلى تخصصات علمية أوسع لتكون أكثر شمولية. وانتقد المؤرخ غيثان ما أسماه بانطواء الأندية الأدبية وتركيزها على شريحة محددة وهو يقصد بذلك معشر الأدباء و المثقفين. والحقيقة أن الدولة أولت اهتماما بالغا بالتخصصات العلمية البحتة فأنشأت لها أندية علمية على مستوى مناطقها التعليمية غير أن دورها ما زال دون المأمول.

وامتـد نقـد ابن جريس ليشمل الفقـر المعرفي و المادي الذي تعانيـه مكتباتنا في توفر الكتـب التاريخيـة التي توثق تاريخ مناطـق المملكة المترامية الأطرف مؤكـدا أن نقده هذا بُنـي على تجربة شخصية جاب من خلالها الكثير من مناطق و محافظات المملكة وخاصة جنوبهـا. ويرى الأستاذ غيثان بن جريس أن سبب الفقر في المادة التاريخية يعود إلى عدم اهتمـام أهل المنطقة بتوثيق تاريخهم في حقب تاريخية متقدمة خاصة الفترة التي سبقت القـرن العاشر الهجري. و أثنى المـؤرخ الكبير على نادي الباحة الأدبـي الذي أحيا إحدى أمسياتـه حينها مشيدا بالطرح الذي قـدم في الملتقى الذي حضره. ومن عجائب الصدف أن مؤرخنا ابن جريس طالب في ذلك اللقاء بتوسع الجامعات في تدريس تاريخ المملكة وهي خطـوة تبنتها لاحقا العديد من الجامعات عبر وضع مـادة تاريخ المملكة كمتطلب أساسي لتخصصات مختلفة.

وفي الثـاني من جمادى الأولى (١٤٢٨هـ) أجرى ابـن جريس لقاءً صحفياً مع جريدة شمـس السعوديـة مركزا فيه علـى قضايا البحـث التاريخي. فقد استهـل اللقاء بانتقاد طريقة تدريس التاريخ في مؤسساتنا التعليمية وخاصة الفصول الدنيا واصفا هذه الطريقة بـ "الأقصوصة" علـى عكس البلدان الغربية التي يحظى فيها "علم التاريخ" بتقدير كبير "مناهـج ومحتوى". وقد وصـف الأستاذ ابن جريس تاريخ جنوبي الجزيرة العربية بـ "الكنز المدفـون" معتـبرا أن "المشوار لا زال طويلا" لإعطائها حقها مـن الدراسة. وطالب جامعات جنوبـي البـلاد السعودية دعـم وتبني مشاريـع بحثية لدراسـة آثار ونقوش المنطقـة منتقدا

تقصيرها الكبير في خدمة تراث و تاريخ وآثار تلك المناطق ضارباً بالمثل منطقة نجران التي زارهـا وتجـول فيها و أشاد كثيراً بتميزهـا عن غيرها بالمواقع الأثرية التـي يعود بعضها إلى قرابـة الثلاثـة آلاف سنة. والحقيقة أن ما ذكره ابن جريس تحـول إلى مطلب كبير لشرائح مثقفـة ومهتمـة بـتراث الوطن في مجتمعنـا. وبعد مضي عشـر سنوات على ما ذكـره المؤرخ ابـن جريس يبدو تجـاوب جامعاتنا بطيئاً يتمثـل في قيام جامعة الملك خالـد بإعادة برنامج البكالوريوس لقسـم التاريخ جنباً إلى جنب مع الدراسات العليا، وجامعة جازان التي أنشأت قسمـاً للسياحة والآثـار، بينما لا يزال هذا الدور غائباً في جامعة نجـران التي من المؤمل أن تتخـذ خطـوة مهمة في دراسة تاريـخ و آثار منطقة نجـران مستقبلاً. ثم انتقـل ابن جريس إلى كتـاب كمـال الصليبي : التوراة جاءت مـن جزيرة العرب ، منتقـداً بشدة ما طرحه من مزاعـم في كتابه حول تاريخ جنوب الجزيرة العربيـة. وفي سؤال حول اهتمامه بالمخطوطات التاريخيـة أشـار المؤلف إلى وجود أكثر من مكتبة تعتني بالعديـد من المخطوطات في التاريخ والعلـوم الشرعية بمنطقة عسير وما جاورها غير أنهـا لم تدرس بعد. و الملاحظ أن مؤرخنا الأستاذ غيثان بن جريس لم يذكر لنا عنواناً واحداً لتلك المخطوطات فقد ركز في حديثه على العناوين العريضة أكثر من التفاصيل.

وفي الخامس من شوال (١٤٣٠هـ) نشرت جريدة الرياض مقابلة مع الأستاذ الدكتور غيثـان بن جريس بمناسبـة اليوم الوطني للملكـة العربية السعودية استهـل فيها مؤرخنا حديثـه باستعراض النتائـج المترتبة على استعادة الملك عبد العزيـز لمدينة الرياض حيث كانـت تلـك الانطلاقة لتوحيد أجـزاء واسعة مترامية الأطراف تحـت مملكة واحدة تنعم بالأمـن و الرخاء و الاستقرار. ثم استعرض مؤرخنا البناء السياسي لمراحل الدولة مشيراً إلى الشخصيـة القيادية الفـذة التي امتلكها الملـك المؤسس عبدالعزيز بـن عبدالرحمن الفيصل آل سعود –رحمه الله-.

وقـد قدم المؤرخ ابن جريس عرضاً تاريخيـاً موثقاً بالتواريخ والحوادث المهمة لمراحل تكويـن الدولة منذ أن كانت تلقب بـ (سلطنة نجد)، مـروراً بتحولها إلى (مملكة الحجاز ونجـد وملحقاتها) وحتى توحيدها تحت مسماها الحـالي (المملكة العربية السعودية) في (١٢) جمـادي الأولى (١٣٥١هـ) . ويبرز في هذا العرض التاريخـي الموجز أهم الأجهزة التـي أسسهـا الملك عبدالعزيـز آل سعود في عهده وهي الديوان الملكـي، ومجلس الشورى، وعـدد من الوزارات الهامة، وجهاز القضاء. ثم انتقل ابن جريس إلى الحديث عن التطور الحضـاري الـذي شهدته المملكـة منذ عهد الملـك المؤسس مستذكراً أن هـدف الملك عبد العزيز بن عبدالرحمن الفيصل لم يقتصر على توحيد البلاد، وإنما انتقل إلى العمل على صبـغ دولته بصبغة عصرية لتواكب العالم المتقـدم، مختتماً حديثه بالتأكيد على أن الملك المؤسـس تـوج جهوده بتأسيس دولة عربيـة إسلامية كبيرة ذات نفوذ مؤثـر و مكانة راقية ودولة قادرة على قيادة العالمين العربي و الإسلامي.

وفي (٨) ربيع الآخر (١٤٣١هـ) كان للأستاذ غيثان بن جريس حوار صحفي مع ملحق الأربعاء بجريدة المدينة، وكان الثاني من نوعه مع ذات الصحيفة. ففي البداية لم يبد ابن جريس تحمسا للأصوات المنادية بإعادة كتابة التاريخ العربي و الإسلامي مكتفيا بالقول أنه يحتاج فقط إلى إعادة صياغة ونقد وتحليل. ويتفق ابن جريس مع الرأي الذي يرى أن كتابة التاريخ بتجرد وحيادية يستلزم جهودا مضنية ومدة زمنية كافية ليتحقق للباحث شرطي الحيادية و التجرد بعيدا عن المؤثرات المعاصرة للحدث. و في حديثه عن سمات المؤرخ يرى أنها ليست تلك المعقدة كما في مهن أخرى، غير أن الأهم فيها أن يتمتع الباحث بحاسة المؤرخ القادر على قراءة الأحداث والحرص على النزاهة عند الحكم عليها. ورغم إقراره بأهمية "الحياد" كصفة أساسية في المؤرخ فإنه يرى أن ذلك لا يتحقق دوما إذ لابد أن تتدخل العاطفة في بعض الأحيان حينما يكتب المؤرخ عن حوادث تاريخية قد تتلقفها أحاسيسه الإنسانية بشيء من العاطفة. ويستنتج مؤرخنا نوعين من الكتابة التاريخية في هذا الصدد. فالأولى: تركز على تسجيل الحوادث بالطريقة "الإخبارية" بينما تهتم الثانية بتفسير الظروف والملابسات المواكبة لأحداث التاريخ.

ويؤيد ابن جريس أن يكون لألوان الأدب والفن المتعددة كالرواية، و المسرح، والسينما، و الإذاعة دور إيجابي في خدمة التاريخ متى ما استثمر بشكل صحيح. وحول المطالبة بتصحيح المفاهيم المغلوطة للتاريخ العربي و الإسلامي عند الغرب، ويقدم ابن جريس رأيا طالما ردده بعض مثقفينا الواعين حول الحاجة إلى إعادة صياغة تاريخنا بما يتناسب مع العقلية الغربية. والحقيقة أن ابن جريس لامس جرحا متواصلا يتمثل في إصرار كثير من مدارس التاريخ في العالم العربي على التقليد و الجمود و السردية ورفض التجديد في مناهج البحث التاريخي. وحول موقفه من التراث يرى الأستاذ ابن جريس أن من لا ماضي له فلا حاضر ولا مستقبل له وهي وإن كانت مقولة صحيحة إلى درجة بعيدة، ليست بالجديدة، فلطالما رددها العديد من المثقفين و المفكرين و وسائل الإعلام. وحول الفرق بين مصطلحي "التاريخ" و "الحضارة" يرى مؤرخنا أن التاريخ مفهوم أوسع من الحضارة فهو سجل يشمل كل فروع الحضارات.

وفي سؤال عن بحثه الذي صدر حينها والموسوم بـ (أطوار أمارة عسير خلال الحكم السعودي المعاصر)، أكد ابن جريس أن الهدف الرئيسي من الدراسة إيجاد مادة تاريخية خام تفيد الباحثين المختصين فيما بعد لتقديم دراسات ذات عمق علمي و تحليلي ونقدي أوسع. ثم انتقل الحوار إلى التطرق لقضية إغلاق أقسام التاريخ و الجغرافيا والاجتماع وغيرها بجامعة الملك خالد عند نشأتها، فانتقد ابن جريس خطوة الجامعة بدمج هذه التخصصات تحت مسمى واحد (قسم العلوم الاجتماعية) مبديا استغرابه حول قيام الجامعة بإغلاق مسار البكالوريوس تذرعا بتشبع سوق العمل في حين تبنت نفسها افتتاح برنامجي ماجستير في تخصصي التاريخ والجغرافيا. ولعل من الايجابي أن جامعة الملك خالد تداركت هذا الأمر و أعادت فتح برنامج البكالوريوس في قسم التاريخ. غير أن ما

يجب الإشارة إليه هنا هو أن تشبع سوق العمل امتد ليشمل تخصصات علمية و تطبيقية بحتة وهذا يجرنا للقول أن الحل لا يكمن في إغلاق الأقسام، بل يتمثل في حلول أخرى أعمق و أنجع كـ" تقنين القبول" و موائمة تخصصات الجامعات الدقيقة مع مستجدات سوق العمل وغيرها.

وحول ظاهرة سرقة الأبحاث العلمية، اعترف الأستاذ الدكتور ابن جريس بوجود أساتذة يقومون بسرقة أعمال غيرهم، و آخرين يدفعون لمن يكتب لهم أبحاثهم و كتبهم، بل إن الأمر وصل إلى بعض طلاب الدراسات العليا (ماجستير و دكتوراه) الذين دفعوا الأموال مقابل من يكتب لهم. وتطرق ابن جريس لظاهرة تسرب الأكاديميين من جامعة الملك خالد تحديداً عازياً ذلك إلى افتتاح ثلاث جامعات بنجران، و جازان، والباحة، حيث توجد الحوافز المالية الجيدة. غير أنه يرى في تحسين كادر الجامعات الذي صدر في وقت قريب من ذلك الحوار بارقة أمل لتجاوز هذه الظاهرة السلبية.

ثم استعرض مؤرخنا احدث إنتاجه العلمي وقت عقد الحوار والمتمثل في كتاب بعنوان: الوجود الإسلامي في أرخبيل الملايو اندونيسيا، وماليزيا أنموذجا. وقد عبر ابن جريس عن بعض المصاعب التي اعترضته أثناء تأليف هذا الكتاب و أهمها الفقر الكبير في المادة العلمية التي تعالج تاريخ بلدان شرق آسيا الإسلامية. و شكا الأستاذ ابن جريس من قلة المشترين للكتب ذات المحتوى العلمي الرصين وفي المقابل زيادة الإقبال على كتب ذات محتوى سطحي، أو ضعيف أو حتى فارغ من القيمة العلمية. وحول أعماله التي يعتز بها ذكر ابن جريس أن مجموع ما كتبه من دراسات تجاوزت الـ (٣٠) كتاباً، و (٨١) بحثاً منشوراً في مجلات ثقافية وعلمية محكمة غالية على قلبه لكن كتاباته عن الاستشراق، والأقليات، وكتبه وبحوثه عن تهامة والسراة كانت أقربها إلى قلبه. و يبدو أن سبب ذلك يتمثل في ارتباط هذه الموضوعات بدارسة ابن جريس في مرحلتي الماجستير والدكتوراه التي كانت أكثر التصاقاً بالتاريخ الإسلامي المبكر والوسيط.

ومع صحيفة "آفاق الجامعة" عاد الدكتور ابن جريس بحوار مشبع بالأسئلة التي استهلها بالحديث عن تاريخ التعليم في جنوب المملكة. فاستعرض تاريخ التعليم العالي بالمنطقة منذ انطلاقته في تسعينيات القرن الهجري المنصرم وصولاً إلى القفزة الهائلة التي حققها بقيام أربع جامعات حكومية متوزعة في المناطق الأربع (عسير، وجازان، ونجران، والباحة). وفي سؤال متجدد حول أوضاع البرامج الدراسية بقسم التاريخ، عاد ابن جريس مجدداً لينتقد ذلك التناقض الصارخ بإيقاف برنامج البكالوريوس مقابل فتح برنامجي الماجستير و الدكتوراه.

وحول رأيه في العلاقة بين الطالب و عضو هيئة التدريس، يرى ابن جريس أنها لابد و أن تكون جيدة يكتنفها التقدير المتبادل مطالباً الأستاذ الجامعي بأن يضع نفسه مقام الأب لأبنائه. وحول معاناة بعض الطلاب من بعض أعضاء هيئة التدريس بجامعاتنا يرى

الأستاذ غيثان أن الأمر لم يصل إلى تلك الدرجة المخيفة فهذه الظاهرة لا تتعدى البعض. ومع بالغ التقدير لمؤرخنا الكبير فإن ما طرحه من آراء و إن كانت في مجملها مثالية و إيجابية للغاية، فانها تفتقد إلى التأطير العملي الذي يقدم للمؤسسات الادارية المعنية حلولاً و مقترحات عملية تعالج هذه الظواهر في إطار أنظمة ولوائح التعليم العالي. واختتم ابن جريس حديثه بالتفاؤل بمستقبل واعد للتعليم العالي في جنوب المملكة في ظل الدعم السخي الذي تقدمه الدولة للجامعات الأربع (الملك خالد، وجازان، والباحة، ونجران).

وفي ثالث لقاءاته مع جريدة "آفاق" جامعة الملك خالد في (١٥) رجب (١٤٣٤هـ) أكد الأستاذ الدكتور ابن جريس أن تاريخ الشعر في منطقة عسير غزير جداً، يعود إلى فترة مبكرة من العصر الجاهلي والعصور الإسلامية المبكرة التي ظهر فيها شعراء كبار فيما يعرف قديماً ببلاد جرش، و تبالة، ونجران وغيرها ويستحق دراسات واسعة و متخصصة خاصة في عصر التاريخ الإسلامي المبكر و الوسيط. ورغم اعترافه بأقدمية الشعر الفصيح، إلا أنه يعترف بتفوق الشعر الشعبي على نظيره الفصيح انتشاراً و قبولاً بين الناس. ويرى في هذا النوع من الشعر مادة مفيدة للكتابة التاريخية رغم ما تحمله من طابع المبالغة و الخيال.

وفي نفس الشهر، (٢٦) رجب (١٤٣٤هـ)، أجرى ابن جريس مقابلة صحفية موسعة هي الثالثة له من نوعها مع "ملحق الأربعاء" بصحيفة المدينة. في بداية اللقاء دافع ابن جريس عن التهمة التي طالما لاحقته بجني أرباح مالية كبيرة بسبب مؤلفاته الكثيرة في سوق الكتب، موضحاً أن سوق الكتاب في العالم العربي لا يلقى رواجاً كبيراً بسبب العزوف عن القراءة. و اعترف مؤرخنا باتجاه كثير من المؤلفين إلى الاسترزاق من بيع كتبهم في المعارض والمناسبات الثقافية مؤكداً ضعف كثير من محتواها. و شكا ابن جريس من غلبة الكساد على الكتب ذات المحتوى العلمي الرصين مقابل الرواج التي تجده كتب ذات سمات ضعيفة وهزيلة، رغم اعترافه بوجود شريحة لا بأس بها تقبل على اقتناء الجديد من الكتب في معارف وعلوم جديدة كالإدارة والحاسب والجودة. لكن مالم يذكره ابن جريس وربما كان أحد الأسباب الرئيسية في تراجع الإقبال على الكتب يتمثل في زحف التقنية و انتشار "الكتاب الرقمي" الذي أصبح يشكل تهديداً كبيراً على الكتاب الورقي التقليدي أيامنا هذه. يُضاف إلى ذلك ارتفاع سعر الكتاب التقليدي، وفي المقابل مجانية الحصول على نظيره "الرقمي" في كثير من الحالات.

وأشاد ابن جريس بالخطوة التي أقدمت عليها الدولة بإحياء سوق عكاظ خلال العشرينيات الهجرية من هذا القرن (١٥هـ/٢١م) آملاً إقامة أنشطة حضارية متنوعة تليق بهذا الاسم التراثي الكبير. والحقيقة أن المتتبع لفعاليات سوق عكاظ في السنوات التي أعقبت البداية، و آخرها العام الفائت (١٤٣٩هـ/٢٠١٨م)، يجد تنوعاً رائعاً و متميزاً في الأنشطة الأدبية والفنية المصاحبة لأيام السوق. وحول أوضاع الأندية الأدبية، عبر المؤرخ ابن جريس عن إحباطه مما وصفه بـ (تدهور وضعها الثقافي و الفكري) رغم

تحسن أوضاعها المالية واشار بأن سبب ذلك اعتماد نظام الترشيح عن طريق الانتخابات، مؤكدا اعتزامه تأليف كتاب عن تاريخ الأندية الأدبية في المملكة بين منذ عام (١٣٩٥هـ-١٤٢٧هـ/١٩٧٥-٢٠٠٦م).. وأكد مؤرخنا على حاجة جمعيات الثقافة والفنون للرعاية والدعم الكافي حتى تقوم بدورها الثقافي و الاجتماعي كما يجب.

وحول مكتبة غيثان بن جريس الوثائقية و جديده البحثي، كشف مؤرخنا عن امتلاكه ما بين أربعين و خمسين ألف وثيقة تغطي الحقبة الزمنية لتاريخ المنطقة منذ القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي). وأكد ابن جريس عمله على نشر هذه الوثائق في عدة مجلدات لتكون متاحة للدراسة والبحث. وقد أتيح لكاتب هذه السطور الاطلاع على بعض هذه الوثائق (الهامة والخاصة) التي صدر بعضها لاحقا في (٢٣) مجلدا في كتاب أسماه مؤرخنا بـ" وثائق غيثان بن جريس الخاصة" فوجد فيها زخما تاريخيا ووثائقيا ثمينا يصلح لأن يكون مادة خام لمواضيع متعددة في التاريخ السياسي، و الإداري ، و الاقتصادي، والاجتماعي لجنوبي البلاد السعودية.

وفي سؤال حول دوافع تأليفه كتاباً عن (قسمي التاريخ بجامعتي الملك سعود والإمام محمد بن سعود الإسلامية، في أبها) ذكر الدكتور غيثان بن جريس عدة أسباب دفعته لكتابة هذا الإصدار، أهمها : سلوك إدارة الجامعة ووزارة التعليم العالي الذي صادر آراء منسوبي القسم. والحق أن مؤرخنا سجل بكتابه هذا موقفا مشرفا في الاعتراض على ذلك القرار الجائر الذي كاد أن يفقد منطقة عسير مؤسسة أكاديمية تعنى بتاريخها وتراثها وحضارتها. وها هو قسم التاريخ اليوم بجامعة الملك خالد يشهد حراكا علميا و أكاديميا ثريا تمثل في عودة برنامج البكالوريوس إلى جانب برنامج الماجستير مع انتظار إقرار برنامج الدكتوراه قريبا بحول الله.

وفي لقاء متجدد مع صحيفة آفاق جامعة الملك خالد في (١٩) رجب (١٤٣٨هـ)، ذكر ابن جريس انه "سُجل" في قسم التاريخ دون أن تؤخذ رغبته ورأيه في ذلك، مستذكرا بداياته الوظيفية التي افتتحها بتعيينه معيدا عام (١٤٠٠هـ/١٩٨٠م) ثم حصوله على الماجستير عام ١٤٠٥هـ، ثم الدكتوراه عام (١٤٠٩-١٤١٠هـ/١٩٨٩م). وقد تضمنت المقابلة أسئلة تقليدية سبق أن ناقشنا مضمونها في سطور سابقة مثل المجالات التاريخية التي كتب فيها ابن جريس، ومكتبته الخاصة، لكن الأبرز إشارته لبعض الجوائز التي حصل عليها كجائزة عبد الحميد شومان في العلوم الإنسانية عام (١٤١٧هـ/١٩٩٧م)، وجائزة ترشيحه أحد شوامخ المؤرخين العرب بالقاهرة عام (١٤٣٥هـ/٢٠١٤م).

ثانياً: المؤرخ ابن جريس في "وحي الوطن"

أشرنا في مقدمة هذا الكتب إلى تلك العلاقة الحميمة التي ربطت مؤرخنا الكبير بالأديب الراحل الأستاذ محمد بن عبد الله بن حميد . والحق أن هذه العلاقة الحميمة مثلت استثناءً فريداً في علاقة (مؤرخ الجنوب)، وهو اللقب الذي أطلقه ابن حميد على

ابـن جريس، بمحيطه الثقافي. إذ ليس بخـاف على المهتمين بتاريخ المنطقة ذلك الاهتمام الخاصـ الذي أبداه ابن حميِّد بمؤلفات مؤرخنا ابن جريس خاصة وأن هذا الأخير اعتاد إهـداء ابن حميِّـد الكثير من مؤلفاته. وقد انعكس أثر ذلك الاهتمام على مقالات الأديب ابن حميِّد في زاويته الثابتة في جريدة الوطن السعودية (من وحي الوطن).

وفي هـذا الكتـاب توفر لكاتب هذه السطـور الاطلاع على أكثر مـن أربعة عشر مقالاً كان "ابـن جريس" عنوانها الرئيسـي. و المتتبع لتفصيل تلك المقـالات، سيجد أن الأديب الكبـير (محمد بن حميِّد) اعتاد الحديث عن جديد مؤلفات ابن جريس بإيجابية وإيجاز يغلفهـا الثناء والتنويه بأهمية محتوى تلك المؤلفات. والملاحظ أنه في ذلك كله يختلف عن أكاديميـين و كتـاب آخرين قدموا قراءات نقدية و تحليلية موسعـة عن الكثير من مؤلفات غيثان بن جريس مما تضمنه هذا الكتاب.

وفي العـدد (٣٢٥٧) بتاريخ (٩) رمضان (١٤٣٠هـ)، تحدث ابن حميِّد عن أحدث ثلاثة إصدارات تلقاها من ابن جريس وهي: أحد أجزاء "القول المكتوب في تاريخ الجنوب" (لم يحدد الجزء)، و "بلاد بني شهر وبني عمرو"، و "الوجود الإسلامي في أرخبيل الملايو"، و "مرتفعات الجزيـرة العربيـة" لعبدالله فيلبي الذي تـولى مؤرخنا مهمة التعليق على متنـه والتقديم له في بضـع صفحات. وقد أشاد ابن حميِّد بمكانة الاستاذ الدكتور غيثان بن جريس وخبرته الواسعة عـن تاريخ وحضارة منطقة عسـير وما جاورها من البلدان مطالبـا بتكريمه في إحدى فعاليات الوطـن الكبرى. وفي ختام مقالتـه كشف ابن حميِّد عن جديد مؤلفـات مؤرخنا (غيثان)، وهو كتاب (محمد أحمد أنور) أحد رواد التعليم الحديث في منطقة عسير.

وبعد بضعة شهور، وتحديداً في الثاني من شهر صفر (١٤٣١هـ)، لم يتوان ابن حميِّد عـن الحديث عن هـذا الكتاب الذي صدر بعنـوان: "من رواد التربيـة والتعليم في المملكة العربية السعودية، محمد أحمد أنور- دراسات وشهادات"، الرجل الذي تشرف ابن حميِّد بصداقتـه و حضور مجالسـه العلمية العامرة. وقد أشاد ابن حميِّد بما احتواه الكتاب من معلومات ووثائق و صور مكرراً مطالبته بتكريم ابن جريس. ومرة أخرى تحدث ابن حميِّد عـن جديد مؤلفات ابن جريـس القادمة، وأهمهـا: مدير مالية الجنوب عبـد الوهاب أبو ملحـة. وبلغـة الإيجاز طالب ابن حميِّـد أقران ابن جريس، ولعله يقصـد بذلك الأساتذة الاكاديمـيين بالمنقطة الجنوبية السعودية بالاقتداء بمؤرخنا في غزارة الإنتاج وخدمة تاريخ وحضـارة البلاد. وتبدو هذه لغة نقدية لطيفة ومنطقيـة في نفس الوقت حاول من خلالها ابن حميِّد استثمار مناسبة إصدار مثل هذا الكتاب ليستحث أكاديميي المنطقة على خدمة تاريخها بما تليق به وبما هم قادرون على فعله.

وفي ثالـث مقـال له عن ابن جريس، كتب ابن حميِّد في زاويته (من وحي الوطن) يوم الأحد (١٣) محرم (١٤٣٢هـ) عن أحدث إهداء تلقاه من ابن جريس وهو "القول المكتوب في تاريـخ الجنوب، عسير و القنفذة" (الجزء الثاني). وكالعادة كان الثناء لغة ابن حميِّد

– علـى محتـوى الكتاب – غير أن الجديد هنا يتمثل في الربـط التاريخي المهم الذي أبداه ابـن حميِّد حول أسباب الارتبـاط التاريخي والجغرافي بين منطقة عسير ومدينة القنفذة بمينائهـا الاستراتيجي المهم. و كشف ابن حميِّد عـن جديد كتب ابن جريس القادمة من سلسلة (القول المكتوب) التي كانت تحت الإعداد و الطباعة حينها.

وفي (١٧) رجـب (١٤٣٢هـ)، أثنى ابن حميِّد على جديـد مؤلفات ابن جريس "وهو كتـاب القنفـذة خلال خمسة قرون، ١٠ – ١٥ هـ"، وعلى ما احتواه من وثائق و صور لمدينة كانـت "الميناء الأول لمنطقة عسير" حسب وصـف الأديب الكبير. وكالعادة ذكر ابن حميِّد جديـد ابـن جريس الذي لم يخـرج وقتها وتمثـل في الجزأين الثالث و الرابـع من (القول المكتـوب)، و(عبـد الوهاب أبـو ملحة، دراسـة تاريخية وثائقيـة)، و (من رمـوز الحياة الثقافيـة و الفكريـة في جنوب البـلاد السعودي (الجزء الأول)". وهـذا الكتاب الأخير لم يخرج إلى النور وهو ما يثير تساؤلاً منطقياً عن أسباب تأخيره ولكن من يملك إجابة ذلك هـو مؤرخنـا القدير غيثـان جريس. والطريف في هـذا المقال أن ابن حميِّـد استخدم لغة الأرقـام في الإشادة بغـزارة إنتاج مؤرخنا ابن جريس، إذ عد كتـاب "القنفذة" بوابة ابن جريـس للوصـول إلى رقم "المئوية" في عـدد بحوثه ومؤلفاته. ويرى في ذلـك سبباً وجيهاً لتكـريم ابن جريس بإحدى جوائز الدولـة الكبرى وهو مقترح سبق أن كرره الأديب الكبير ابن حميِّد من قبل .

وفي عـدد الأحـد (١٣) شوال (١٤٣٢هـ)، أثنى الأديب ابن حميِّد في مستهل زاويته "مـن وحـي الوطن" بكتـاب "القول المكتـوب، عسير و نجـران (الجزء الثالـث)"، مكرراً مطالبتـه بتكريم المؤرخ الكبير.وبنفس اللغة الإخبارية المختصرة استهل ابن حميِّد زاويته في عـدد الأحد (٩) محرم (١٤٣٣هـ)، بالتنويـه بكتاب "عبدالوهاب أبو ملحة، في جنوب البلاد السعودية ١٣٤٠– ١٣٧٤هـ" واصفاً إياه بـ "السفر الثمين".

وفي العدد (٢٠) ليوم الأحد ربيع الأول (١٤٣٣هـ)، عاد ابن حميِّد للحديث عن كتاب "عبدالوهـاب أبو ملحـة، في جنوب البلاد السعودية ١٣٤٠– ١٣٧٤هـ"، مشيداً بشخصية رجـل الدولـة عبدالوهاب أبو ملحة ، مؤكـداً على أهمية الكتاب الـذي يحصر فترة مهمة مـن تاريخ جنوب المملكـة العربية السعودية التي ارتبطت مالياتهـا بعبد الوهاب أبو ملحة مدير مالية أبها في عهد الملك المؤسس عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود. وفي نفـس المقال، أبدى الأديب الكبير ابـن حميِّد سروره بصدور كتاب: "مؤرخ تهامة والسراة – غيثان بن علي بن جريس، دراسة وتوثيقه"، معتبراً هذا الكتاب بمثابة التكريم و اعترافاً بجهـود المـؤرخ القدير (غيثان بـن جريس) في خدمة تاريخ المنطقـة الجنوبية، والمعروفة ايضاً باسم (بلاد تهامة والسراة) .

وفي عـدد الأحد (١١) شعبان (١٤٣٣هـ)، كان لابن جريس حضور متجدد في زاوية "من وحـي الوطن" للأديـب ابن حميِّد . ففي مستهـل مقاله، أشاد بمسيرة ابـن جريس في خدمة

تاريـخ المنطقة الجنوبية السعوديـة قبل أن يتحدث عن آخر إهداءات ابن جريس من سلسلة " القول المكتوب في تاريخ الجنوب، جازان والقنفذة". وقد رأى ابن حميِّد أن أهمية هذا الكتاب تتمثل في الارتباط التاريخي، الجغرافي والاجتماعي بين مناطق جنوبي المملكة الأربع **(عسير، والباحة، وجازان ونجران)** تزيد من أهمية هذا الكتاب الموسوعي **(القول المكتوب)**.

وفي يـوم الأحد (٢١) ربيع الآخر (١٤٣٤هـ)، شكـر ابن حميِّد في مستهل زاويته "من وحي الوطن" المؤرخ الكبير على إهدائه كتاب" نجران، دراسة تاريخية حضارية" وهو كتاب قديم طبع لأول مرة عام (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م) وأعاد غيثان بن جريس نشره في طبعة حديثة و فاخـرة عام (١٤٣٤هـ/٢٠١٣م) ومن جديد بشّر ابن حميِّـد بجديد مؤلفات ابن جريس مثل كتاب: "الوجود الإسلامي في الصين من القرن الأول إلى القرن العاشر الهجري، دراسة حضاريـة تاريخيـة". وللأسـف لا يزال هذا العنوان المميز في طـور الانتظار ولا نعلم أسباب تأخـر مؤرخنـا الأستاذ ابن جريس عن إطـلاق هذا الكتاب الذي سيشـكل بلا شك إضافة نوعيـة للمكتبة التاريخية العربية نظرا لمحدودية اهتمام المؤرخين العرب بالشرق الأقصى و الصين تحديدا، فتاريخ الإسلام فيها لا يزال مجهولا لكثير من دارسي التاريخ.

وفي عاشـر مقالات ابن حميِّد عن "ابن جريس"، خصص زاويته "من وحي الوطن" يـوم الأحـد (١١) محرم (١٤٣٤هـ)، للمطالبة بتكريم المؤرخ الكبـير تحت عنوان "عالم يستحـق التكريم" نظير جهـوده الكبيرة في خدمة تاريخ المنطقـة بأكثر من (١١٥) كتاب ودراسـة منشورة. وفي ذات المقـال أبدى ابن حميِّد إعجابه بآخـر إصدارات ابن جريس: "دراسات في تاريخ وحضارة جنوبي البلاد السعودية، الجزآن الأول و الثاني" لتنوع أبحاثه و مواضيعـه. وكمـا عودنا الأديب الكبير في معظم مقالاتـه السابقة، كشف ابن حميِّد عن جديـد ابـن جريس حيث ذكر انه يعكـف على إنجاز ثلاثة كتب جديـدة هي: "نجران، من القـرن الخامس إلى القـرن العاشر الهجري"، و"القول المكتـوب في تاريخ الجنوب، عسير و الباحـة (الجـزء الخامس)"، و"الوجـود الإسلامي في الصين، من القـرن الخامس إلى العاشـر (الجـزء الثـاني)". وللأسـف فإنه لم ير النور مـن هذه الكتب الثلاثـة حتى الآن سـوى (القول المكتوب)، الأكيد أن كتابي "نجـران" و "الصين" يظلان مشروعين قائمين وواعدين ستكون الأيام كفيلة بتحديد مصيرهما. وفي ختام زاوية ابن حميِّد الصحفية رأي أن ما قدمه ابن جريس من جهود يؤهله لإحدى جوائز الدولة الكبرى، وبذلك ستكون حافزا لغيره في العمل الجاد لإثراء الساحة الثقافية و الفكرية بأعمال علمية رصينة ومميزة.

وفي زاويتـه يـوم الأحد (١١) جمادى الأولى (١٤٣٤هـ)، تحـدث ابن حميِّد بإعجاب كبـير عن جديـد سلسلة كتاب "القول المكتوب في تاريخ الجنوب، عسير والباحة" لما تزخر بـه المنطقتـان المتجاورتان من تراث وثائقي و معرفي غزير. وجـدد الأديب الكبير الإشارة إلى جديـد مؤلفـات ابن جريـس القادمة التي لم تـر النور وقت كتابة المقـال وهي "تاريخ جـازان الاقتصـادي"، "الجـزء السادس مـن القول المكتـوب"، و"الوجـود الإسلامي في الصين، من القرن الثالث إلى العاشر الهجري". وفي ذات الشأن، أشاد ابن حميِّد بكتاب

الأستاذ محمد بن مُعَبِّر "موكب الأقلام" الذي خصصه لقراءة التاريخ الإسلامي في مكتبة الأستاذ الدكتور غيثان بن جريس، مستعرضاً بعض أبرز ما احتواه الكتاب، وعن بعض الجوانب الشخصية العلمية لابن جريس، وهنا يبرز ابن حميِّد ما اتصف به ابن جريس من حرص شديد على حفظ و أرشفة ما يرده من خطابات و رسائل.

وفي زاوية (وحي الوطن) بتاريخ (٥) رمضان (١٤٣٤هـ)، نجد استعراضاً سريعاً لثلاثة إهداءات تلقاها الأديب ابن حميِّد من الأستاذ الدكتور غيثان بن جريس وهي: "صفحات من تاريخ عسير، ج ١، ط٢" و "بلاد بني شهر وبني عمرو خلال القرنين ١٣ و ١٤ هـ، (الطبعة الثالثة)"، كتاب: "عبدالوهاب أبو ملحة". وكالعادة بشر أديبنا الكبير القراء بجديد ابن جريس وهما الجزء السادس من (القول المكتوب)، والجزء الثاني من (نجران دراسة تاريخية حضارية، ق ٥- ١٠هـ) وكأنه يستحث المؤرخ الكبير على سرعة إنجاز هذين الكتابين.

وتحت عنوان "مؤرخ الجنوب"، احتفى الأستاذ ابن حميِّد في زاويته، يوم الأحد (١٩) صفر (١٤٣٥هـ)، بتكريم اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة للأستاذ الدكتور غيثان بن جريس ضمن شوامخ المؤرخين العرب. وأكد ابن حميِّد على استحقاق المؤرخ الكبير للتكريم الذي حظي به نظير ما حققه من انجازات علمية قاربت المائة والعشرين كتاباً ودراسة، داعياً إلى ضرورة دعمه مادياً و معنوياً، مع أحقيته بالتكريم في وطنه وجامعته.

ومن جميع ما سبق، يتضح أن مقالات الأديب والأستاذ الكبير (ابن حميِّد) ركزت على الجانب الايجابي و المشرق في مؤلفات غيثان جريس بعيداً عن لغة النقد العلمي و التحليل العميق. وهنا قد نجد الكثير من العذر لأديبنا الكبير (رحمه الله) فمساحة الزاوية الصحفية لم تكن كافيه لتقديم قراءات تحليلية ونقدية عميقة لإنتاج ابن جريس. إضافة إلى ذلك ربما أراد أديبنا بنهجه هذا استثارة مؤرخي المنطقة الجنوبية السعودية لمجاراة أو منافسة ابن جريس في إثراء المكتبة التاريخية لجنوبي البلاد السعودية. ولعل من أهم فوائد مقالات الأديب الكبير (ابن حميِّد) إماطة اللثام عن مشاريع ابن جريس البحثية وكتبه الجديدة التي ما زال بعضها قيد الكتابة أو غير منشور حتى تاريخ كتابة هذه السطور.